القرآن بين آفاق القراءة والتلاوة

د. زياد خليل محمد الدغامين (*)

تمهيد :

شُغل الجيل الأول من المسلمين بالقرآن قراءة وتدبّرا ، وتلاوة وتفهّما ، فأورثه مجدا خالدا ، وقاده إلى صنع حضارة أفَلَت من شمس ضيائها الساطع كل الحضارات . وتبوأ - بفضله - مكانه الشامخ في قمّة التاريخ . وخلف من بعدهم خلف أضاع المجد ، وهوت بعجزه الحضارة ، وباتت الأمّة ذيلا في قافلة الأمم .

والسبب هو : التفريط في حق القرآن ، وعدم تحقيق مقاصده ، واتّجاه قراءته إلى مقاصد أخرى ، وتحوّل الاهتمام بقراءته إلى مجرد ضبط مخارج حروفه ، وتحسين الصوت بغُنّاته ومدوده ، والمبادرة به إلى المسابقات المحلية والعالمية (**) ، وصار الاشتغال به وتعلّمه وسيلة للحصول على الوظائف ، والترقّي في المناصب ، لقد أضعنا القرآن فضاع كل شئ .

وحاول المفسرون والمفكرون إعادة توجيه الأمّة إلى كتاب ربّها ، فألفوا في

(*) أستاذ التفسير المشارك ـ بقسم القرآن والسنة ـ كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية/ ماليزيا

(**) هاجم القرطبي وغيره هذه الطريقة في تلقّي كتاب الله ، انظر : أبوعبدالله محمد بن أحمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (١٩٦٧) دار الكتاب العربي ، القاهرة . ج١ ، ص ١٦ - ١٧ ، ٢٠ .

بيان فضله ، وآداب حملته ، وكيفية قراءته ، ومايرافق ذلك من خشوع وبكاء ، وحاولوا وعظ القارئ للوصول به إلى مرحلة ينفي بها عن نفسه أن يكون من زمرة الصالحين حين يقرأ الآيات المخبرة عنهم ، وأن يشهد على نفسه - إذا قرأ آيات المقت وذمّ العصاة - أنه معهم [١] ، وهي مرحلة حصيلتها الترقّي في سموّ الروح والنفس ، وهو أقصى ماتصبو إليه همّة القارئ . ومعنى هذا أن يقرأ القرآن لنفسه ويخصّها به ، وليس في هذا حرج ولا ضير ، بل الضير والحرج أن لا تتجاوز القراءة تلك المقاصد ، ولا تبتعد في أهدافها أكثر من سموّ الروح وصفاء النفس ، وأن يكون غاية منتهاها صلاح الفرد ، وهذا الأسلوب في التعامل مع القرآن - على شدّة الحاجة إليه وقوّة الرغبة في إدراكه - يتسبّب في الانعزال عن الواقع : واقع المجتمع المحلي والعالمي ، وواقع السياسة والاقتصاد ، وواقع التربية والاجتماع ، وواقع الحياة بكل ميادينها . ثم لا تتّضح - بهذا الأسلوب - الأبعاد الكاملة ، والآفاق البعيدة لمفهوم «القراءة والتلاوة» ، ولايتحددّ في ضوء آياتها منهج يمكن أن يحققّ حضورا دائماً لهذا الوحي الإلهي في عالم الإنسان وواقع حياته .

ومن ثَم تتّجه هذه المحاولة في الدراسة إلى استقراء النصوص القرآنية المتعلقة بالقراءة والتّلاوة ، حين تتصل كل منهما بالقرآن ، أو بكتاب الله السماوي ، أو بأيات الله ،ودراسة هذه النصوص في سياقاتها . ويتعلق بهذا الاستقراء أمل هذه المحاولة في تحديد مفهوم مصطلح قراءة ، ومصطلح تلاوة . وبيان مايتقرر - من خلالهما - من أسس وضوابط في التّعامل مع القرآن الكريم . وبيان خصائص كل منهما ووظائفه .

وبعبارة أخرى : إن الآفاق التي تهدف هذه الدراسة إلى بيانها والوقوف

(١) انظر بحثنا «نظرية الإمام الغزالي في التعامل مع القرآن» مجلة المسلم المعاصر ، عدد ٨٠ (١٩٩٦) ، ص :١٠٦ .

على حقائقها من خلال نصوص القرآن ، نجملها في المباحث الخمسة الآتية :

المبحث الأول : معنى القراءة والتلاوة لغة واصطلاحا ، وبيان الفرق بينهما ، وورود كل منهما في القرآن .

المبحث الثاني : خصائص القراءة الحضارية لكتاب الوحي .

المبحث الثالث : شروط القراءة المنهجية للقرآن الكريم .

المبحث الرابع : أخطاء في منهج تلقي الكتاب الإلهي .

المبحث الخامس : وظائف التلاوة ومهمّاتها .

ثم تأتي خاتمة البحث لتبيّن أهم نتائجه .

هذا التتبّع لفعليْ «قرأ» و «تلا» في سياقاتها ، والتعرفّ على القضايا الأساس في هذا الموضوع - يكشف عن بعض عن بعض المعالم الضرورية في منهج التعامل مع القرآن ، ويبيّن الآفاق المعرفية التي تظهر من التفاعل معه قرآءة ، وتلاوة .

المبحث الأول

معنى القراءة والتّلاوة لغة واصطلاحا ، والفرق بينهما ، وورودهما في القرآن :

أ - **القراءة في اللغة** : يقال : قرأت الشيء قرآنا : جمعته ، وضممت بعضه إلى بعض ، ويقال : ماقرأت هذه الناقة سلى قط ، وماقرأت جنينا قط ، أي : لم تضم رحمها على ولد . ومنه سمّي القرآن ، لأنه يجمع السور ، فيضمها ، أو لأنه جامع ثمرة كتب الله المنزلة ، أو لجمعه ثمرة جميع العلوم .

قال قطرب : قرأت القرآن أي : لفظت به مجموعا[٢] . وقال ابن فارس : القرآن من القرو ، وهو الجمع ، أو أن يخرج القاريء من آية إلى آية . أقرأتْ الناقة : حملت . وأقرأتْ المرأة : خرجت من طهر إلى حيض ، أو من حيض إلى طهر[٣] . والقراءة تعني ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل ، وتقرّأت : تفهمت ، وقارأته : دارسته ، والقرآن في الأصل مصدر نحو : كفران ورجحان[٤] . وقال في معجم مقاييس اللغة : القاف والراء والحرف المعتل : أصل صحيح ، يدل على جمع واجتماع ، وإذا همز هذا الباب كان هو والأول سواء[٥] .

فممّا تفيده هذه الكلمة ـ إذن ـ معاني : التفهم والمدارسة ، والجمع والضمّ ، والتنقل من حال إلى حال .

---

(٢) انظر : مجدالدين محمد بن يعقوب الفيرزوابادي ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق محمد النجار (بلا تاريخ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت . ج٤ ، ص٢٦٢-٢٦٣ .

(٣) أبوالحسين أحمد بن فارس ، مجمل اللغة (١٩٨٦) ، مؤسسة الرسالة . بيرت . ج٣ ، ص٧٥٠ .

(٤) الحسين بن أحمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق صفوان داودي (١٩٩٢) ، دار القلم ، دمشق . ص :٦٦٨-٦٦٩ . وانظر : جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة (١٩٨٢) ، دار المعرفة ، بيرت . ص :٣٦٠ .

(٥) أبوالحسين أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبدالسلام هارون (١٩٨١) ، مكتبة الخانجي ، مصر . ج٥ ، ص٧٨-٧٩ .

أمـا التّـلاوة في اللغة : فقال ابن فارس : إن التـاء واللام والواو أصل واحد ، وهو الاتباع . يقال : تلوته إذا تبعته ، ومنه تلاوة القرآن ، لأنه يتبع آية بعد أية(٦) . وقال الراغب : تلاه : تبعه متابعة ، ليس بينهم ماليس منها ، وذلك تارة بالجسم ، وتارة بالاقـتـداء في الحكـم ، ومـصـدره تُلُوّ وتلْو ، وتارة بـالقـراءة ، أو تدبّر المعنى ، ومـصـدره تلاوة . والتّـلاوة تختصّ باتّبـاع كَتب الله المنزّلة ، تارة بالقـراءة ، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي ، وترغيب وترهيب ، أو مايتوهّم فيه ذلك(٧) .

ومـعنى تلاوة الله الآيات : إنـزاله الآيات شيـئـا في إثر شيء(٨) . وذهب ابن عاشور إلى أن المراد بتلاوة آيات الله : تلاوة آيات القرآن(٩) . وهو كلام فيه نظر ، ولـم يبن على استقراء .

ب - **القـراءة في الاصطلاح** : إذا مـا اقـتـرن فـعل القـراءة بالقـرآن الكـريم فـإنما يراد بـهـا استظهاره عن ظهـر قلب ، بقـصـد تفـهـّم ومـعرفـة ماجـاء به من حـقـائق وأصـول ، وهذا سـرّ تـنزيله على قلب الرسـول ﷺ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (الشـعـراء :١٩٣-١٩٤) . وعلـيـه : فـقـراءة القـرآن ليست حـركـة آلية ، ولـكنها «عمليـة يشترك اللسـان في الإفصـاح عن المقروء فيـها وإظهاره ، والقلب في تفهّمه وفقه مراده ، والوقوف على حقائقه إدراكا ووعيا .

ويتقرر معنى القراءة في جمع هذه الحقائق وضمّـها في القلب ، جمع وعي وفـهـم وتعقّل : لتتحـقّ لـه الحياة الفاعلة ، لأن الحياة في مفـهـوم القـرآن هي حـيـاة القلوب بالإيمان ، ثم ليتأهل بعد ذلك بالقراءة إلى تحقيق وظائفه الخلافية المستندة

---

(٦) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٥١ .

(٧) الأصفهاني ، المفردات ، ص :١٦٧ .

(٨) برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٩٩٥) ، دار الكتب العلمية بيروت . ج١ ، ص٤٨٣ .

(٩) محـمد الطـاهـر بن عـاشور ، التحرير والتنوير (١٩٨٤) ، الدار التـونسية للنشـر ، تـونس . انظـر تفسيره للآيـات : آل عمران ـ١٦٤ ، المؤمنون :٦٦ ،١٠٥ ، الشعراء :٦٩ .

إلى العبودية لله تعالى ، ولينطلق في آفاق الكون الواسع يسوقه ، ويرشده دليل آمين ، فيخرج من حال الجهل إلى حال العلم ، ومن حال الظلمة إلى حال النور ، ومن حال الضلالة إلى حال الهداية . ولما كان ذلك كذلك ، كانت أول آيات القرآن نزولا آمرة ومُعلِمة بهذا التحوّل الكبير في حياة البشرية ومسيرتها .

وقيل في معنى قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ (الأعلى :٦) أي : سنجعلك قارئا ، أي : جامعا لهذا الذكر الذي هو حياة الأرواح بمنزلة حياة الأشباح ، عالما به كل علم ، ناشرا له في كل حيّ ، فارقا به بين كل ملتبس ، وإن كنت أمّيّا لاتحسن الكتابة ولا القراءة[١٠] .

التّلاوة في الاصطلاح : في ضوء مابيّنته اللغة يمكن القول : إن التّلاوة : هي اتّباع هدى كتاب الله وسننه . وتطلّب الاستمرار على ذلك بلا فصل ، كما ذكر البقاعي[١١] . لقد «أنبأهم الله بأن هذا التنزيل لأنفسهم بمنزلة الغذاء للأبدان ، فكما تتنامى أجسادهم بماء المزن وما منه ، فكذلك تتنامى أنفسهم بأحكام الكتاب وتلاوة الآيات ، وذلك زكاؤها ونماؤها ، لتتأكد فيه رغبتهم»[١٢] .

وعليه ، فالتّلاوة تعنى إمرار هذه المعاني والحقائق على القلب ، واحدة تلو الأخرى ، تدبراً وتفهّما ، وتذكرا ، خشية النسيان ، وسيعا وترقيا نحو كمال الالتزام ، ووصولا بالإنسان إلى مستوى من الوعي يمكنه من تحقيق مفهوم الخلافة بكل معانيها ومقتضياتها .

ج - الفرق بين القراءة والتلاوة : قيل : أن التلاوة اسم لحكاية كلام لإرادة تبليغه بلفظه ، وهي كالقراءة ، إلا أن القراءة تختصّ بحكاية كلام مكتوب[١٣] . وهو

(١٠) البقاعي ، نظم الدرر ، ج٨ ، ص٣٩٦-٣٩٧ .
(١١) البقاعي ، نظم الدرر ، ج٤ ، ص١٥٠ . ج٥ ، ص٢٢٣ .
(١٢) البقاعي ، نظم الدرر ، ج١ ، ص٢٧٥ .
(١٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج٤ ، ص٤٦ .

قول فيه نظر ، لإن تخصيص القراءة بالكلام المكتوب فيه تضييق لمفهومها إذا ما اتصلت بالقرآن ، وكون القرآن كلاما مكتوبا لايعني أن القراءة مختصّة به لتلك الحالة ، أعني : حالة الكتابة ، فالكتابة وسيلة واحدة من وسائل حفظه ، فكيف بحالاته الأخرى قبل الكتابة ! وكيف حين يكون القرآن محفوظا في القلوب ! ثمّ كيف تختصّ القراءة بحكاية كلام مكتوب؟ وقد قرأ الرسول ﷺ القرآن ، ولم يكن مكتوبا ، وقوله تعالى : ﴿ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (يونس :٩٤) ، وقوله : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ (الإسراء :٩٣) لايفيد اختصاص القراءة بحكاية كلام مكتوب ، لأنها قد وردت مطلقة في قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ (العلق :١) . وكيف تتلى هذه الآيات على مستكبري هذا الزمان الذين يرطنون بالأعجمية؟

ويتبيّن الفرق بين القراءة والتلاوة فى ضوء آيات القرآن الكريم نفسه ، فقد جاءت القراءة في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (النحل :٩٨) ، وقوله :﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الإسراء :٤٥) . والتلاوة في قوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ (يونس :٦١) ، وقوله تعالى على لسان رسوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآن ﴾ . والسياق هو الفيصل الحاكم في بيان الفرق بينهما .

ويتبيّن منه في السورتين الأوليين :أن القراءة لا ترد إلا في موطن المواجهة مع المشركين حول بيان أصول الإيمان الكبرى ، وبناء أسس التصور الصحيح لمفهوم : «الله الخالق» ، و «الكون» ، و «الإنسان» .

أما تلاوة القرآن فقد جاءت في سياق اتّباع هدى الله تعالى ، وماشرعه من

أحكام ، ومانصبه من سنن تضبط حياة الخلق ، وتكشف عن نواميس الكون . إن التّلاوة تحمل في طياتها ـ ههنا ـ في هذا السياق المتنوع معاني التعرّف على سنن الخلق والحياة ، والبحث عن علامات وبراهين وهدايات تضبط شؤون حياة الناس .

لقد كان بناء التصور يسير جنبا إلى جنب مع بيان السنن الإلهية في الخلق والكون والحياة والإنسان في الفترة المكية ، ولذلك أمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالتّلاوة التي هي في حقيقتها تتبّع السنن والهدايات الإليهة ، والانتظام في سلك هذه السنن والهدايات ، واقتفاء أثرها والاستجابة لها . وإذا كانت القراءة اتّباعا يتّجه نحو ترسيخ القناعة التامّة بقضايا الإيمان الكبرى ، فإنّ التلاوة اتّباع يتّجه نحو توطيد الاستجابة السلوكية ، أو تمكين الالتزام بالتكليف التشريعي .

وإذا كان معظم القراءة جاء مقترنا بالقرآن ، فإنّ معظم التلاوة جاء مقترنا بآيات الله على وجه يشعر بأن هذه الأمّة هي أمة التلاوة ، كما أنها أمّة القراءة .

د - **القراءة في القرآن** : وردت كلمة «قرأ» في القرآن الكريم بتصريفاتها المختلفة سبع عشرة مرّة ، في ست عشرة آية : وردت مرّتين منها مطلقة ، وعشر مرّات مقترنة بالقرآن الكريم ، ومرّتين مقترنة بكتاب الله السماوي السابق ، وثلاث مرّات مقترنة بكتاب الإنسان الذي هو صحيفة أعماله التي يقرأها يوم القيامة . ومن عجيب أسرار هذا الكتاب : أن هذه الكلمة بتصريفاتها العديدة قد وردت كلها في آيات القرآن المكيّ . ولهذا دلالته التي تحاول هذه الدراسة الكشف عنها بإذن الله .

وارتبط فعل القراءة في القرآن بثلاثة كتب : كتاب الخلق ، أو كتاب الكون :

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾ (العلق :١-٢) . والكتاب السماوي الذي هو كتاب الوحي ، سواء أكان التوراة أم القرآن ، ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ ﴾ (النحل :٩٨) . وكتاب العمل : ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ (الإسراء :١٤) . فالقراءة لاتكون إلا لكتاب الكون ، أو كتاب الوحي ، وتأتي حصيلة وثمرة مايجنيه الإنسان في كتاب العمل الذي يقرأه كل إنسان ، ليتحقّق بنفسه من العدالة المطلقة يوم القيامة . وبهذه الكتب الثلاثة تتجلّى حكمة الله تعالى في خلق الإنسان ، وجعله خليفة في الأرض ، وتتوضّح مسؤولية هذا الإنسان الخليفة .

أما التلاوة في القرآن : فقد ورد فعلها الثلاثي بتصريفاته المختلفة في القرآن الكريم أكثر من ستّين مرّة ، في إحدى وخمسين آية ، وكان وروده في سياقات متعددّة المقاصد والغايات ، فوردت ست عشرة مرّة مقترنة بالكتاب - الكتاب السماوي المنزّل - والصحف ، ووردت إحدى وثلاثين مرّة مقترنة بآيات الله ، وفي سبع مرّات مقترنة بالأنباء والذكر . وورد بقيتها في معاني أخرى . وقد وردت في آيات القرآن المكي والمدني .

المبحث الثاني

خصائص القراءة الحضارية لكتاب الوحي

١ - **أنها قراءة شاملة** : أورد القرآن الأمر بالقراءة مطلقا ، ولكنه واضح الاتجاه والغاية في قوله تعالى في أول آيات القرآن نزولا : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ (العلق : ١-٥) . ولما كانت القراءة مقترنة باسم الرّب الخالق ، خالق الكون والحياة ، وخالق الإنسان من علق ، كانت الإشارة في الآية واضحة إلى أن القراءة متّجهة نحو كتاب الخلق أو الكون باسم الله ، - تعالى - قراءة تفهّم ودراسة ، بوصفه واحدا من ميادين المعرفة . هذا الكتاب الواسع الكبير الذي وقع كثير من الناس في عبادة مظاهره .

إنها قراءة كتاب الخلق المنظور باسم الله - تعالى - ، واسمه - تعالى - : هو المفتاح الذي يقرأ به هذا الكتاب ، والقرآن هو الخطّة التي تتمّ بموجبها هذه القراءة ، بل هو دليل هذه القراءة ، وسبيلها الرشيد ، وناصحها الأمين .

٢ - **أنها قراءة خالدة** : يذكر الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسيره قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) ﴾ (العلق : ١) : أن الله سبحانه الذي أبدع الكائنات قادر على أن يوجد فيك - أيها النبيّ - القراءة ، وإن لم يسبق لك تعلمها ، لأنك لم تكن تدري ما الكتاب ، فكأن الله يقول : كن قارئا بقدرتي وبإرادتي ، وإنما عبرّ بالاسم لأنه دالّ على ما تعرف به الذّات ، وخلق القراءة يلفتك إلى الذّات وصفاتها جميعا ، لأن القراءة علم في نفس حيّة ، فهي تخطر ببالك من الله : وجوده ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته[١٤] .

---

(١٤) محمد عبده ، تفسير جزء عمّ (١٩٨٥) ، مكتبة الهلال ، بيروت ص :١٢٦-١٢٧ .

وعليه ، فليست القراءة كسبا بشريا ، بل عطاء إلهي ، ومنحة ربانية ، تفضّل بها على النبيّ الأمّيّ محمد ﷺ ، كما يشير إلى ذلك - أيضا - قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الأعلى :٦) ، وقد خرج عليه الصلاة والسلام من حال إلى حال ، وأخرج من كان حوله من حال إلى خير حال .

هذه الآية توضّح أبعادا جديدة لهذه القراءة ، فالقراءة لاتكون ـ أو لايجب أن تكون ـ إلا باسم الله ـ تعالى ـ وهي - فضلا عن ذلك - قراءة لا تقبل الزوال ، وتستعصي على النسيان ، باقية على الرغم من تآكل الأزمان ، وتبدّل الدهور والأيام ، إنها قراءة شُرعت لتبقى ، وفرضت لتحكم نظام الحياة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ونتيجتها النهائية ومقصدها الرئيس : بناء التصوّر الصحيح حول : «الله الخالق» و «الكون المخلوق» ، وهو التصوّر الذي يتمّ بموجبه تحقيق كل معاني العبودية لله ـ تعالى ـ الواحد الأحد .

لقد توضّحت الآية في سياقها الذي يعرّف بالربّ الخالق الذي تتجلّى آثار قدرته في هذا الوجود ، وتحمل القراءة في مضمونها دلالة التعرّف على هذه الآثار ، إنها - كذلك - قراءة لكتاب الخلق ، بهدي الوحي والقرآن العظيم . وهي قراءة تهتدي بآيات هذا الكتاب ، وتبتعد عن الحرفية والسطحية التي أخلّت بمنهج قراءة القرآن ومقاصده ، وتنتهي عن مجرد ترديد الأصوات ، والاشتغال بالحروف والألفاظ .

وينبغي للمقبل على تفهّم القرآن أن يدرك هذه الخاصيّة في إقراء الله رسوله القرآن ، ويتعامل مع حقائقه على أساس اليقين المطلق ، والثبات الخالد ، ليبني قراءته للوجود في ضوء هذه الحقائق ، إذ لا يمكن دراسة هذا الوجود وتفهّم أسراره والتعامل معه إلا من خلال هذه الحقائق ، وهو وحده عاجز عن التوصّل إلى شيء من حقائق هذه القراءة بدون عون الله تعالى .

لقد مَنّ الله ـ سبحانه ـ على هذا الإنسان - الذي أرهقته الفلسفات المادية ، وشتّتته الأهواء المضلّة - بالرحمة والهداية ، ولم يتركه لنفسه في هذا العهد الأخير للإنسانية بالرسالات الإلهية . وحال القصور البشري هذا يتطلب مقرئا عظيما ، يهدي إلى الطريق القويم ، ويرشد إلى الصراط المستقيم ، وذلك المقريء الأعظم هو الله ـ سبحانه ـ الذي أقرأ محمداً رسوله ﷺ ، وعرفّه بهذا الوجود وخالقه العظيم ، تعريفا يعصم من الانهيار وينقذ من الدّمار ، فالقراءة بهذه الصّفة هي التي تحقّق مفهوم التوازن في حياة البشر .

٣ - **أنها قراءة توقيفية محفوظة محدّدة الغاية والهدف** : لقد صنع الله تعالى هذه الأمّة بالقراءة ، فهي أمّة «اقرأ» ، وحتى تبقى على الطريق الذي خطّه الله ـ تعالى ـ لها بيّن سبحانه : أن عليه جمع موضوعها - يعني القرآن - في قلب نبيّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وأن عليه قراءته ، ولم يترك هذه القراءة لهوى الإنسان ورغبته ، وبهذا أراح هذه الأمّة ونبيّها من مهمّة حفظ موضوع القراءة وكيفيتها ، ووجّهها نحو تحقيق أهداف القراءة وغاياتها : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ (القيامة :١٦-١٨) . فكما أن القراءة منحة إليهة ، وهبة ربانية ، فالواجب تجاهها الاتّباع البصير :﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ ، أي : اتّبع معالم هدايته الشاملة وحقائقه الكاملة . وهي معالم لاينبغي تناولها وتلقّيها على وجه العجلة والسرعة ، وهذا أول نهي يأتي على تلك الصورة في التلقّي ، استعجال ترديد ألفاظه ، فليست هي الصورة المثلى في التلقّي ، بل لابدّ من التروّي في إدراك وتفهّم حقائق هذا الوحي المنزّل ، وكأن السياق يقول : ليس مهمّا استعجال قراءته بقدرمايهمّ اتّباع هديه ، إنّ على الله ـ سبحانه ـ حفظه وقراءته وبيانه ، وعلى الناس الاتّباع البصير .

إن حرصه ﷺ على تلقّي القرآن بهذا الاهتمام يبيّن قيمة وأهمية تلك المعالم التي لم يشهد مثلها البشر ردحا طويلا من الزمن .

ومدلول هذا من الناحية المنهجية : ترسيخ الثقة المطلقة ، واليقين الكامل بنصّ هذا الكتاب - واجب الاتّباع - الذي جمعه الله ـ تعالى ـ وحفظه في صدر نبيّه الأمين ، حتى يكون الكتاب الأوحد الذي يضع أسس السعادة الشاملة في الحياتين . وسيبيّن الله ـ سبحانه ـ للبشرية كلها على طول الزمان أن لاصلاح إلابهدي هذا الكتاب .

فالتّعامل مع القرآن بهذه الروح يضع حدّا للهزيمة النفسية التي دبّت في قلوب أبناء هذه الأمّة ، فأدّت بهم إلى الارتماء في أحضان الثقافات المادية ، وتقليد النماذج العلمانية الملحدة ، وجعلها أنماطا سلوكية تُسيّر حياة الناس .

فالتّخلّص من أثقال هذه الهزيمة النفسية شرط أساس للعودة إلى القرآن ، وهو كذلك شرط أساس من شروط النهضة والانطلاق الحضاري ، وذلك الانطلاق لايكون إلا من الذّات ، من الأصل ، من الوحي ، حتى لايقوم أحد ويحاول التوفيق بين الإنموذج الإسلامي الذي يرتكز على الوحي الإلهي المطلق المحفوظ ، وبين غيره من النماذج الوضعية العلمانية المادية التي اصطنعتها عقول البشر وخيالاتهم .

وهو من ناحية أخرى يضع حدّا للمفاصلة والمجاملة على حساب هذه المعالم الشاملة : ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ ، وواضح أن التهاون في هذا الاتّباع سبيل إلى التراجع إلى الوراء ، إنْ على مستوى الفرد ، أو على مستوى مجموع الأمّة .

٤ - **أنها ذات معارف شاملة ، وأنها لاتنقطع ولاتتوقف** : اقترن الأمر بالقراءة بالتقصير ببلوغ المرتبة القصوى في عبادة الله ـ تعالى ـ وشكره ، في سياق

سورة تدعو إلى التحصّن بالزاد الروحي - قيام الليل - الذي يعين على خوض المعركة التوحيدية بصبر وعزم، وثقة ويقين: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَايَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ ﴾ (المزمل: ١٠)، وخصّت وقت الليل، لأنه أصفى الأوقات لتفهّم القرآن ودراسته، هذا التفهّم يُعدّ طريقا مهمّا يقود إلى الثبات، لأن قناعة الشخص بما هو عليه تساعد في صبره وثباته على الحق، يدل لذلك: الأحوال التي نزلت فيها السورة، والجوّ العام الذي تطلب مثل هذه الصناعة القويمة للنفوس. إنها مرحلة بناء الحصانة الفكرية، وتكوين القناعة الراسخة التي لا تتزلزل في خضم المواجهة ولا تتزعزع، فاستمرارها مطلب أساس لضمان إمداد الروح والعقل بمعارف شاملة.

والمعارف الشاملة تتجلى في مضمون آيات الله القرآنية، من حيث بيانها المبدأ والمنتهى، وأن الكون محكوم بنواميس إليهة، وأن الحياة تسير على وفق سنن ربانية، وأن الإنسان مكلّف بعمارة الأرض على وفق تلك السنن.

ومن الوجوه القوية التي ذهب إليها العلماء في بيان المراد بالقراءة في قوله: ﴿ **فاقرأوا ماتيسر منه** ﴾: أنها قراءة القرآن من غير الصلاة، وعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولا على الوجوب أو على الاستحباب على وجهين:

أحدهما: أنه محمول على الوجوب، ليقف القارئ بقراءته على إعجازه، ودلائل التوحيد فيه، وبعث الرسل، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل التوحيد فيه أن يحفظه، لأن حفظ القرآن من القرب المستحبّة، دون الواجبة(١٥)، لأن الشأن الأهم، والقصد الأعظم من هذه القرأة: الوقوف على أصول التصور الصحيح حول «الله الخالق، الواحد الأحد»، و «الكون

(١٥) والوجه الثاني: أنه محمول على الاستحباب دون الوجوب، وهذا قول الأكثرين، لأنه لو وجب عليه أن يقرأه وجب عليه أن يحفظه، انظر: أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، النكت والعيون، (بلاتاريخ) دار الكتب العلمية، بيروت ج٦، ص١٢٣.

المخلوق» ، لينظم الحياة ويقيمها على أسا وحدانية الله المطلقة .

لقد جمع القرآن ـ هنا ـ بين العجز عن القيام بحقّ شكره ، وبين الأمر بقراءة القرآن : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ (المزّمل :٢٠) ، وارتبطت قضايا كبرى تتصل بالإنسان فتقعده عن صلاة الليل بالقراءة أيضا ، كالمرض ، والضرب في الأرض ابتغاء فضل الله ، والقتال في سبيل الله : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (المزمل :٢٠) . ويذهب المفسرون إلى أن هذا تخفيف من الله تعالى عن المؤمنين قيام الليل بسبب هذه الأعذار والقضايا التي تشغلهم «من أعذار اختلال الصحة ، والأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش ، وأعمال ترتبط بمصالح الأمّة»[١٦] ، لكن السؤال ـ هنا ـ هو : لمَ حدث الانتقال من القيام إلى قراءة القرآن معلّلا بعلم الله بأمرين : عجزهم عن إحصائه(*) ، وعلمه بتلك الأعذار؟ ولعلّ الجواب هو أن القراءة التي هي تفهّم معاني القرآن هي الأساس والمنطلق في هذه الحياة ، ولاينبغي أن تتعطّل أو يوقفها سبب مهما كان قويا وعظيما ، وهي فرض غير قابل للتخفيف أو الزوال والانقطاع . لقد ترقّى القرآن في صناعة النفوس في مجالين :

الأول : حبس نفوسهم وأوقاتهم على الطاعة والعزيمة ، فإنّ القيام فيه مجاهدة عظيمة لأهواء النفس ، وبه تصقل وتترفع عن الشهوات والملّذات ، وتصبر على الطاعة ، فيقوى بذلك إيمانها ويقينها ، وهذه المرحلة ناطقة بتهذيب

---

(١٦) ابن عاشور ، ج٢٩ ، ص٢٨٥ .

(*) من الوجوه التي ذكرت في الإحصاء ماذكر الراغب ، وهو أن الوجه في تعذر إحصائه : هو أن الحقّ واحد ، والباطل كثير ، بل الحق بالإضافة إلى الباطل كالنقطة إلى سائر أجزاء الدائرة ، وكالمرمى من الهدف ، فإصابة ذلك شديدة ، . ص :٢٤٠-٢٤١ .

السلوك ، وترويض النفوس على الطاعة والفضيلة ، والتوجّه إلى الله عبادة وشكرا ، فإن كلّت العزائم بسبب أعذار قاهرة ، فلتتوجّه إلى قراءة القرآن ، وهو المجال الثاني .

الثاني : حبس أذهانهم وقلوبهم في قراءة هذا الكتاب ، لتتهذب العقول ، وتتربّى في ظل رعاية الوحي ، تربية تمكنها من الانطلاق في آفاق الكون والحياة ، لتقيم العبودية لله في ميدان آخر ، ولئلا تصطدم بمظاهر هذا الوجود ، فتشذّ ، أو تندّ عن سبيل الحقّ والرشاد . وبهذا يكون الله ـ تعالى ـ قد فتح بابا واسعا من أبواب الهداية ، وهو : قراءة القرآن ، وهي قراءة : اليسير منها عظيم ، وماعليهم إلا أن يتفهّموه ، ويعملوا بمقتضاه .

وحين يربط القرآن بين علمه بعجزهم عن إحصائه شكرا وعبادة ، فهل القراءة تعوّض هذا العجز؟ لعلّ ذلك ممكن ، فإذا قصدنا بالإحصاء المعرفة[١٧] ، فالقراءة مؤدية إلى هذه المعرفة ، فمن أرادأن يعرف الله ، فليقرأ القرآن ، فهو خير من يعرِّف بالله تبارك وتعالى .

وتدرك من الربط بين علمه بأعذارهم وبين القراءة أن توجيههم إلى قراءة اليسير من القرآن يُبقي هؤلاء – على مابهم من عذر – في بر الأمان ، وذلك لأن القراءة تشحن فؤاد العبد وقلبه ، وتمدّه بطاقة روحية كبيرة ، فالحقائق الشاملة الكبرى التي أوردها القرآن تملأ الفراغ المعنوي الذي يُعدّ كارثة للإنسان ، وإذا كان الخشوع يحقّق من الصلاة غرضها ، كذلك ترتيل القرآن وقراءته إذا قامت على عمادها ، وهو : التدبّر والتأمل . فإذا لم يستطع العبد أن يقوم بالقرآن ليلاً ، فليقرأه نهارا على تلك الصفة ، إن كان به ضعف ، أو شغل بالضرب في الأرض ، أو في القتال في سبيل الله ـ تعالى ـ ، وهي أعمال عظيمة ، قد تحول

---

(١٧) فخر الدين الطريحي ، تفسير غريب القرآن (مجهول تاريخ النشر ودار الطباعة) ، ص١٩ .

بين الإنسـان وبين قـيـام الليل ، ومع ذلك لاينبـغي أن تفـوّت عليـه ذلك الخيـر العميم ، المتمثل في قراءة القرآن ، لا لتكون بديلا عن قيام الليل ، بل لتبقى صلة الإنسان قـوية به : ﴿ **فاقرأوا ماتيسر من القرآن** ﴾ ﴿ **فاقرأوا ماتيسّر منه** ﴾ . وعلى كل الأحوال لا ينبغي للإنسان أن يغفل عن القـراءة التي هي تفهم للقرآن ومعـرفة له .

إن سياق السورة الكريمة وارد في تمكين الرسول من الزاد المعـرفي والروحي للمـواجهـة العقائدية مع المكذّبين بالوحي والرسـالة . والزاد الفكري وحـده غير كاف إذا لـم يشفع ذلك زاد روحـي ، لتمتليء النفس بما تدعو إليـه ، وتتشرب هذه الحـقـائق الكبـرى ، وتثبت على مـا هي عليـه من الحق والـهـدي . وميـزة الزاد الروحي أنه يجعل الفكر قـابلا للتحقّق في أرض الواقع ، فيسهل من عـملية إقناع الخصم ، وهذا الذي يمدّ به القـرآن المسلم من توقدّ الجانب الروحي فيه لا يشـاركه فيـه الخصم الألدّ من الماديين والعلمـانيين . وقـراءة القـرآن تفـهّـمـا ودراسـة تحقّق هذين الأمرين : عـصـمة الفكـر والاعتـقـاد ، وتوقّد الروح . وعلى هذا فـلابدّ من إشـغال الفكر والـروح بهذه الحقـائق القرآنية الجـامعـة ، ليتجلّى أثـرها في ميـادين العلم والعمل .

المبحث الثالث

شروط القراءة المنهجية للقرآن الكريم

إن الدعوة المتكررة إلى قراءة القرآن وتدبّر آياته ، والاستعاذة بالله عند القراءة من الشيطان الرجيم ، والاستماع والإنصات عندها ، كل ذلك ينبغي أن تتوجّه العناية لمعرفة أسراره ، واستنباط الضوابط التي تحدّد منهج التعامل مع القرآن من خلال هذين المصطلحين : القراءة والتلاوة .

إن الآيات الكريمة التي دعت إلى قراءة القرآن الكريم واردة كلها في سياق بناء منظومة عقائدية شاملة ، تمثل المصدر الذي يستمدّ منه الإنسان كل تصوراته حول الوجود وخالق الوجود ، ولذلك جاءت في سياق جدال الكافرين ، أو أولئك الذين انحرفت تصوراتهم من أهل الكتاب ، لتصححها ، أو تعيد بناءها ، وتقوم اعوجاجها ، فقد أخفقت اليهودية والنصرانية والعلمانية بكل مذاهبها وتياراتها في بناء تصورات صحيحة عن الله الخالق ، وعن الكون والحياة والإنسان .

لقد ورد فعل القراءة في القرآن بصيغ الأمر ، أو بما يفيد الأمر والتقرير : من طلب فعل ، أو إقامة حجّة ، وقد تجلّى جانب الرعاية الإلهية في متابعة قراءة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقراءة أمّة الدعوة وترشيدها : ﴿ **فاستعذ بالله** ﴾ ، ﴿ **جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا** ﴾ ، ﴿ **فاتبع قرآنه** ﴾ ، ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأة على الناس على مكث** ﴾ ، ﴿ **فاقرأوا ماتيسر من القرآن** ﴾ ، ﴿ **فاقرأوا ماتيسر منه** ﴾ ، ﴿ **فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ ، ﴿ **ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين** ﴾ ، ﴿ **فاسأل الذين يقرأون الكتاب** ﴾ ، فهذا الخطاب ذو الآفاق المتعددّة يوضّح شأن القراءة وأثرها في طريقة

تلقّي القرآن الكريم ، ومما ينقصنا اليوم في التعامل مع القرآن : هو حسن تلقّي هذا الكتاب بالروح التي تلقّاه بها السلف الصالح رحمهم الله .

إن القراءة حين تتصل بالقرآن لاتكون إلا عن ظهر قلب ، قلب يعي مايقرأ ، ويفقه مايرتّل ، ويدرك مايردّد ، ويميّز في ضوء هديه بين الحق والباطل (*) . وقد حملت آيات القراءة في طيّاتها خطوات منهجية ، من شأنها أن تحسّن أسلوب تلقِّي القرآن ، وهذه الخطوات هي :

أ - **الاستعاذة** : يقول الحقّ جل جلاله ـ موجّها نظر المؤمنين إلى ضرورة الاستعاذة عند إرادة القراءة ـ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (النحل :٩٨) ، «والاستعاذة عنوان صادق ، وتعبير حقّ عن امتلاء قلب المؤمن بمعني اللجوء إلى الله ، وقوّة عزيمته في طرد الوساس والشكوك ، واستقبال الهداية بقلب طاهر ، وعقل واع ، وإيمان ثابت»(١٨) .

لقد سبق الآية تحذير من جعل عهد الله وسيلة للترزّق والتكسّب : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ . وعهد الله : هو هذا القرآن العظيم ، وقد سبق أن بعض الأمم وقع في هذا المنزلق الخطير في التعامل مع الكتاب السماوي ، حين ألبس الباطل ثوب الحقّ ، وأوّل آيات الحقّ ، لتوافق هوى الباطل ، وابتغى به رضي الناس بسخط الله ، لذلك كان التّجرد عن الهوى في التعامل مع القرآن الكريم شرطا منهجيا .

إن عملية التزيين التي يحدثها شياطين الإنس والجنّ في نفس القاريء بهدف ابتغاء ثمن قليل ، أو بهدف تحقيق منافع مالية ، أو الترقّي في مناصب علمية ، أو سلطانية ، كل ذلك يحبط شأن القراءة ، ويفسد ثمراتها وفوائدها .

(*) وقد ذكر علماء التجويد مراتب القراءة : كالترتيل ، والحدر ، والتدوير ، والتحقيق ، وهي لاتنفك عن التدبر والتأمل .

(١٨) محمود شلتوت ، تفسير القرآن الكريم (١٩٨٣) ، دار الشروق ، بيروت . ص١٧-١٨ .

إن القراءة لا تثمر إلا في قلب متجرّد ، تربته : الإخصلاص ، وهدفه : ابتغاء الهداية ، واقتفاء أثرها ، وإحقاق الحقّ وإبطال الباطل ، وبعبارة جامعة : تحقيق مفهوم العبودية والخلافة .

وسبق سياقها - كذلك - تحفيز المؤمنين ، وحثّهم على الالتزام بالعمل الصالح ، وعليه «فإن القرآن ـ تلاوة وتفكرا وعملا بما ضمن ـ أجلّ الأعمال الصالحة وأزكاها ، والاستعاذة من الشيطان مطلوبة ، لئلا يحول بوساوسه بين القارىء وبين مثل تلك الأغراض والعمل بها ، وحاصلة : الحثّ على التدبّر ، وصرف جميع الفكر إلى التفهّم ، والالتجاء إليه ـ تعالى ـ في كل عمل صالح ، لئلا يفسده الشيطان بوساوسه ، أو يحول بين الفهم وبينه[19] .

ويظهر في هذه الآية - من ناحية أخرى - مقصد الدفاع عن حقائق القرآن جليا واضحا ، فقد وردت في سياق الحديث عن فساد تصوّر الكافرين باعتقادهم بتعددّ الآلهة ، ولما كان الكافرون معاندين ، يعمدون إلى المغالطات ، تشويشا على الحقّ ، وتشويها له ، وسخرية من أصول هذا التصور ، بيّن الحق ـ جلا جلاله ـ أن كل هذا العبث الوثني الجاهلي المادي لا يمكنه مغالطة حقائق التصورات الاعتقادية أو مخالطتها ، إن القرآن لا يمكن أن يكون متعلق وهم أو شبهة ، أو ريبة وشك : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴿٢﴾ ﴾ (البقرة :٢) .

ب - **الاستماع والإنصات** : التخلّص من أوهام النفس وأهوائها : خطوة منهجية في التعامل مع القرآن قراءة وفهما ، وتوضيح ذلك : أن القارئ المقبل على تفهّم القرآن ومعرفة معانيه ينبغي أن لا يدّخر في قلبه أو ذهنه أفكارا مسبّقة يحاول أن يجد لها من التأويل مايسوّغها ، وهي في حقيقتها لا تنسجم مع هدي القرآن

(١٩) البقاعي ، نظم الدرر ، ج٤ ، ص٣٠٩ .

الكريم ، فما من فرقة قرأت القرآن بهذه الصفة إلا خرجت عن جادّة الحقّ والصواب ، لأن أول أهداف القراءة هو : الاهتداء إلى الحقّ والنّور ، ولذلك تأتي آية سورة الأعراف واضعة حدّا لهذا الهوى في التعامل مع القرآن ، فليس أمام العبد إلا الاستماع والإنصات ، يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ (سورة الأعراف :٢٠٤) .

الاستماع : هو الإصغاء بعناية وانتباه ، وقال الراغب : «وكل موضع أثبت الله فيه السمع للمؤمنين ، أو نفاه عن الكافرين ، أو حثّ على تحرّيه ، فالقصد به إلى تصوّر المعنى والتفكر فيه»[٢٠] . وجعله بعض العلماء قسمين : سمع أذن ، وسمع قلب[٢١] . وأما الإنصات فأصله : «نصت» ، وهو فعل يدلّ على السكوت ، كما ذكر ابن فارس[٢٢] .

وقد يُتساءل عن اقتران الاستماع والإنصات معا في حقّ الإنس والجنّ ، والجواب : أن الآيتين وردتا في سياق واحد ، هو : محاجّة الكافرين ومجادلتهم ، وبيان انحراف التصور عند الجاهليين الماديين ، حتى وصل بهم الأمر إلى طلب آية بينّة ، فيأتي الأمر الصريح بالاستماع والإنصات إلى قراءة القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (الأعراف :٢٠٤) . فهو أكبر أية لو استمعت قلوبهم ، وكفّت عن المشاغبة ألسنتهم .

والحديث في كلا السياقين عن الاستماع للقرآن والإنصات يفيد : أن ليس هناك كلام أحق بأن يُصغي له القلب غير الوحي فيما يتعلق بقضايا الإنسان

(٢٠) الأصفهاني ، المفردات ، ص٤٢٦ .

(٢١) الحسين بن محمد الدامغاني ، قاموس القرآن ، أو إصلاح الوجوه والنظائر ، تحقيق عبدالعزيز سيّد الأهل (١٩٨٥) ، دار العلم للملايين ، بيروت . ص :٢٤٧ .

(٢٢) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج٥ ، ص٤٣٤ .

الكبرى . أضف إلى ذلك ما للكلام الإلهي من هيمنة على نفوس المخلوقات : إنسها وجنّها ، وهو كلام له مداخله الخاصّة إلى قلب الإنسان ووجدانه ، لا يدركها البشر ، وليس بإمكانهم تقليدها أو محاكاتها . وهو مكمن الإعجاز وسرّه . إنها لحظات تنطلق فيها حاسّة السمع من أسرها ، وتفتح أبوابها ليصل إلى القلب ذلك الخطاب الإلهي المعجز .

وقد بيَّن القرآن كيف أن المشركين عطّلوا حاسَّتي السمع والبصر : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) ﴾ (الأعراف :١٩٨) ، فالقرآن يطالبهم بتفعيل حواسّهم وتوظيفها ، بوصفها وسائل أو منافذ للقلب إلى الإيمان ، فهي التي ارتقوا بها إلى مستوى الإنسانية ، وهي التي - إن عطلوها - هبطوا بها إلى دركات الحيوانية . لقد طالبوا الرسول بآية ، والقرآن بين أيديهم أكبر آية ! فلتستمع إليه قلوبهم ، ولتتوقف عند قراءته ألسنتهم ، لتتم عملية الوعي الكامنة في الاستماع والسكوت ، فكأن اشتغال القلب وعدم تفرغه ، وحركة اللسان وعدم استقراره ، يؤديّان إلى عدم الفهم والوعي ، ومن ثَمّ عدم الانتفاع بمايُقرأ ، وهذا أسلوب تربوي يُعَلّمه القرآن في تعلّم القرآن .

كذلك في سورة الأحقاف تحذير من شرّ تعطيل الحواسّ ومايؤدّي إليه من عاقبة : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾ . وأنهم لم تقدهم هذه الحواسّ إلى الانتفاع بآيات الله ، وفي بيان ذكر الجنّ بعدها ـ وكيف أنهم أحسنوا تجاوبهم مع خطاب القرآن بحسن استماعهم وإنصاتهم ـ تعريض بكل من لم يفعّل حواسّه في تلقّي القرآن ، فالقرآن لم يطلب تسليما سطحيا ، أو إيمانا تقلديا ، بل طلب

إعمال النظر في هداياته الشاملة ، وحقائقه البيّنة ، ليكون كل قاريء أو مستمع على ثقّة وقناعة بأن الآيات القرآنية هي كالآيات الكونية ، من حيث أن كلا منها مدخل إلى معرفة الله تعالى .

إن القلوب الفارغة لا يملؤها بالتصور الحقّ إلا القرآن ، وكأنه يُفترض أن لا تعمّر القلوب إلا بما يقرأ عليها من قرآن ، وأن ماعدا ذلك خراب لها .

وإذا كانت الاستعاذة تمثل جانب التخلية عن كل هوى متّبع ، فإنه بالاستماع والإنصات يتمثل جانب التحلية الذي يتطلب من القاريء الإصغاء إلى حقائق القرآن ، لتكون هي المهيمنة على فكر الإنسان وسلوكه ، وعليه يجب على كل ميادين العلم والمعرفة الإصغاء بقلب واع إلى خطاب القرآن وهدايته ، سواء في ذلك العلوم الطبيعية ، أو العلوم الإنسانية والاجتماعية . ولِمَ تفترض هذه العلوم ابتعاد القرآن عن واقع عملها؟ أليس الكون صنع الله؟ أليس القرآن كلام الله ـ تعالى ـ الذي يتحدث عن صنعه وخلقه ، فكيف يكون بعيدا عن تلك الميادين؟

ج - **الثقة واليقين** : وإذا كان الاستماع والإنصات لا يؤديان إلى ثقة وإيمان فإنه حريّ أن يحجب هؤلاء عن الهداية .

وتوضّح الآيات أن تلقّي القرآن بنوع من عدم اليقين والثقة أو التصديق والإيمان بما يدعو إليه سبيل يؤدّي إلى حرمان الإنسان من الانتفاع بهديه . يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ (الإسراء :٤٦-٤٥) .

وسياق الآية وارد في مقام مواجهة المشركين الذين انحرف تصوّرهم ،

فجعلوا الملائكة بنات الله «سبحانه وتعالى عمّا يقولون علّو كبيرا» ولما كانت هذه المعتقدات ضربا من الظن والتخمين واتّباع الهوى لاجرم أن انتفاعهم بهدي القرآن الذي صرّف الله لهم فيه من الآيات واحد من المستحيلات : ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ (الإسراء :٤٠-٤١) ولما كانت كذلك ، ضُرب بينهم وبين الانتفاع بهدي القرآن بذلك الحجاب المعنوي ، وهو حجاب الوهم والتخمين ، حيث عاقبهم الله ـ تعالى ـ بجنس عملهم ، فكان اتّباعهم الهوى عقوبة شديدة صرفتهم عن تحقيق الانتفاع بنور الوحي . وأي عقوبة أشدّ من أن يرى العبد النور ثم لا ينتفع به ، ولا يستضيء بهديه في حياته ، كالظمآن الذي يرى الماء ثم لا يستطيع الوصول إليه ، لا عجزا ، ولكن جهلا وكبرا ! .

وأكّد القرآن ذلك العقاب ببيان حرمانهم من الانتفاع به : فقها ، وإدراكا ، ووعيا . إنه الأكنّة على القلوب ، والوقر في الآذان ، وهو عقاب يورث عدم الإحساس ، وغلبة البلادة ، وغلظ الطبع ، وقساوة القلب .

إن اتّباع الظنّ - في القضايا الجوهرية الكبرى - مانع كبير من موانع فهم القرآن ، وإن تعجب فعجب أمر أولئك الذين يدرسون الإسلام والقرآن ولايحظون بشيء من حسن الفهم ، أو ينالون قبسا من نور الإيمان ، بسبب سوء قصدهم ونيتهم ، وفساد هدفهم ، وتوجّههم في دراسة هذا الكتاب ، أعني : لفيف المسشرقين .

وإنكار الآخرة على وجه الخصوص يجعل قضية الاستفادة في غاية الصعوبة ، لأنه لا أمل ولا ثقة لمن يكفر بالآخرة بحياة أخرى ، ولأجل ذلك يقصر همّه على هذه الحياة ، يسابق الزمن ، لتحصيل أقصى غايات اللّذة التي أعمت

بصيرته وبصره عن رؤية نور الحقّ . وهذه بحدّ ذاتها حجب صارفة عن هدي القرآن ، ولا يحطمها إلا نور الإيمان ، هذه الحجب تمثل في الحقيقة مواقف مسبقة اتّخذها الكافر من القرآن ، في حين أنّ القرآن الكريم ميسّر للذكر ، كما أخبر الحقّ جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر :١٧) . لقد أنكر القرآن عليهم اختيارهم وإعراضهم عن القرآن مع أن فيه خاصّية تتصدع لها الجبال وتخشع : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾(الحشر :٢١) .

وفي موضع آخر يبيّن القرآن أن ما أثاره الماديون من شبهات ـ اعتراضا على شخص النبيّ ﷺ ـ ماهو إلا صرير باب ، أو طنين ذباب ، فحقيقة موقفهم من القرآن : الكفر : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الشعراء :١٩٨-١٩٩) . إن الثقة بالنفس تولّد الاستجابة للحقّ والثقة به ، لكن هؤلاء مع نفاذ قوّة القراءة إلا أنها لم تصل إلى قلوبهم .

هذه – إذن – قضية منهجية ، وأساس مهمّ من أسس التعامل مع القرآن ، فحتى ينتفع العبد بكل ما في القرآن يحتاج إلى أن يكون على يقين راسخ بأنه كلام الله ربّ الخلق أجمعين ، وأن يكون على قناعة تامّة بأن الآخرة حقّ ، عندها ينشرح بالإيمان صدره ، ويتجلى نور القرآن في قلبه ، والقرآن نفسه يمنح هذه القناعة ، لأنه يمتلك خاصية الإقناع ، فهو خطاب العقل ونداء الروح .

د – **الانقياد لهديه والإذعان لحكمه** :لقد تبيّن في آيات القرآن أن القراءة من شأنها أن تقود العبد إلى التسليم والانقياد الكامل . وقد أنكرت على الكافرين عدم إيمانهم ، وعدم سجودهم عند سماع القرآن يُقرأ عليهم ، هذا الإنكار الذي جمع بين هذين الأمرين يوحي أن تفهّم القرآن ودراسته تؤدي حتما إلى الإيمان والسجود ، أي : الانقياد والإذعان لما جاء به . وهو المقصد من القراءة في قوله

تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) ﴾ (الانشقاق :٢٠-٢١) ، . وليس معنى القراءة ـ ههنا ـ تلاوة آياته لتسمعها آذانهم ! كلاّ ، فلو كان ذلك كذلك فكيف يُقرأ على مسامع غير المسلمين الذين هم أكثر من في الأرض اليوم ! وهؤلاء لا يفهمون لغته ، ولا يتكلمون بها؟ فقراءته عليهم تعني : إيقافهم على حقائق الوحي وهداياته في الكون والخلق والحياة ، ولذلك كان الإنكار عليهم منصبّا على عدم انقيادهم أو تسليمهم بهذه الحقائق التي تهب للإنسان إنسانيته الكاملة ، وتؤطّر معالم معرفته الشاملة ، وتحقّق له الاستقرار النفسي ، والانضباط الخلقي والسلوكي .

وردت هذه الآية - أيضا - في سياق تصحيح التصوّر حول نهاية الكون والحياة الآخرة ، لتقول : آن للقرآن أن يقول كلمته : إن هذا الكون فان ، وإن هذا الإنسان ملاق جزاء عمله ، وستنتقلون من حال إلى حال ، فها أنتمً لم تكونوا شيئا مذكورا ، ثم كنتم ودبّت فيكم الحياة ، ثم أصبحتم شيوخا ، ثم تصيرون أمواتا ، ثم تعرضون على ربّكم ، لينال كل جزاءه ، فما بالكم - أيها الناس - لا تؤمنون؟ وما بالكم لا تستجيبون لهدي القرآن الذي تسمعون؟ وهي تنكر على الماديين والعلمانيين ركوبهم متن الغواية والعناد ، وعدم انقيادهم وإيمانهم بهذه الحقائق الإلهية .

هـ - قراءته على مكث : يرشد قوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا (١٠٦) ﴾ (الإسراء :١٠٦) إلى حكمة الله ـ تعالى ـ في تنزيل هذا القرآن مفرّقا ، ويبيّن شأن الرسول ومهمّته في قراءته على الناس على مكث ، «فكونه يقرأ على الناس علّة لجعله قرآنا ، وكونه يقرأ على مكث علّة لتفريقه ، لتكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين»[٢٣] .

(٢٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج١٥ ، ص ٢٣١ .

وهذا أسلوب تربوي يقضي بالتدرّج في بناء منظومة التصورات المعرفية حول القضايا الكبرى ، والآية واردة في سياق محاجّة الحق للباطل ، والتدرّج - في هذا السياق - يعبّر عن جرعات معرفية أو إيمانية يغذّي بها القرآن قلب المؤمن وفؤاده ، ويملأ بها نفسه وروحه ، ويؤسس بها قواعد المجتمع ويشيّد بنيانه ، وهو أمر ضروري ، فنقل الناس من واقع ماديّ يجهل أسس العلاقة الصحيحة بين الخالق والمخلوق لا يتمّ في طرفة عين ، وإن الرحلة الفكرية من حال إلى حال يستغرق حقبة زمنية ، وهي فترة نزول القرآن الكريم كله .

ولولا ماتضمنه من بيان حقائق الوجود وصفات خالق الوجود مانزل مفرّقا على هذه الصورة ، ولولا هذه الصفات الجامعة لهذا الكلام المعجز ماكانت قراءته تستحقّ كل هذه الأهمية ، ولذلك جاءت الأحاديث النبوية الكثيرة تبيّن فضل قراءته ، وبيان الأجر العظيم ، والثواب الجزيل على تلك القراءة ، كل ذلك ليصل المؤمن إلى هذه الحقائق والقناعات ، وعليه ، فقراءة القرآن بهدف الثواب ليست مقصدا وغاية بحدّ ذاتها ، ولكن لكونها وسيلة إلى معرفة تلك الحقائق شجّعت وحثّت عليها .

والسؤال الذي قد يتردّد في بعض الأذهان هو : هل هذا يعني أن نقرأه اليوم على تلك الصورة المتدرّجة بعدما اكتمل نزوله؟ أي : نقرأه على عجل؟ كلاّ ! إن الآية لم ترد في سياق بيان الأحكام ، ولكنها في سياق محاجّة أهل الباطل ، وقرآءته على مكث وتروّ يفسح المجال للقلب أن يفقه ، وللعقل أن يعي ويدرك ، حتى لا تتحوّل القراءة إلى الصورة التي نراها اليوم ، لقد قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : «لئن أقرأ سورة البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحبّ إليّ من أن أقرأ القرآن هذرمة(*) . وقال : لئن أقرأ «إذا زلزلت» والقارعة أتدبّرهما أحبّ إليّ

(*) الهذرمة : السرعة في الكلام والمشي ، ويقال للتخليط : هذرمة . انظر : مجد الدين المبارك بن محمد ، ابن الأثير ، النهاية في غريب الحدث والأثر ، تحقيق محمد الطناحي (١٩٧٩) ، دار الفكر ، بيروت . ج٥ ، ص٢٥٦ .

من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا[٢٤] ، إن القراءة المتعجلّة للقرآن لا تحقّق ثمارها ، ولا بدّ لعقل الإنسان وقلبه من استيعاب حقائق هذا التصور .

وهذه الخطوات المنهجية ينبغي أن تتهيأ في نفس العبد ، وتكوِّن عنده القابلية للتفاعل مع قراءة القرآن . ومن البدهي : أن المقبل على قراءة كتاب مهما كان موضوعه يضع بين عينيه أهدافا عديدة ، فقد يقرؤه لتزداد معارفه ، ويتسع اطّلاعه . وقد يقرؤه ليمحّص مافيه ، ويناقش أفكاره ، ويكشف عن مكنوناته وأسراره . وقد يقرؤه باحثا عن حلّ القضية التي تواجهه ، والمشكلة التي تعترضه ، وقد يقرؤه لإشباع عاطفته ووجدانه . ولأي هدف من هذه الأهداف كانت قراءة الناس للقرآن ، فإنهم سيجدون ـ لا محالة ـ أن القرآن حيثما أرادوا من حقّ وحقيقة ، ومن صدق ويقين ، وأنه البلسم الشافي ، والشرعة والمنهاج لقيادة حياة الناس نحو النجاة في الدّارين ، وتحقيق السعادتين ، هذا إن كانوا أمناء على القراءة ، متصفين بالحيادية والموضوعية والنزاهة .

(٢٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، إحياء علوم الدين (بلاتاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت . ج ١ ، ص ٢٧٧ .

المبحث الرابع

أخطاء في منهج تلقي الكتاب السماوي

تمتد آيات القراءة والتّلاوة بآفاقها البعيدة لتبيّن الأخطاء المشينة التي وقع فيها أهل الكتاب الذين أفسحوا لعقولهم المجال لتبديل حقائق الكتاب السماوي ، وصرف معانيه عن مقاصدها ، غير أننا لن نتحدث عن هذا الجانب ، لأن فعلهم هذا يُعدّ جناية عظمى ، وكفرا بواحا ، وليس مجرد خطأ في التلقّي والتعامل معه .

إن بحثنا يتّجه إلى بيان الطريقة الخاطئة في تعاملهم معه ، والأخطاء الجسيمة التي وقع فيها المشركون - أيضا - من جرّاء ذلك الموقف الفجّ تجاه قراءة القرآن وتلاوته . وجاء ذلك البيان بأسلوب يحمل في طيّاته تحذيرا شديدا لهذه الأمّة «أمّة اقرأ» ، لئلا تقع فيما وقع فيه هؤلاء ، ويمكن بيان مجمل أخطائهم في النقاط الآتية :

أ - **تحويله إلى رسوم ومظاهر** : إن شأن الكتاب السماوي أن يكون حجّة للإنسان ، وعصمة له من الزلل والخطل ، وهذا يوجب العمل بما جاء فيه ، وعدم ستر هداياته ، ولهذا واجهت «سورة يونس» الرسول - ﷺ - ، وفرضت عليه إعلان هذا التصور والثبات عليه ، وفاتشته بأسلوب يحقّق إقامة الحجّة على أهل الكتاب الذين وردت الآية في شأنهم : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (يونس ٩٤) . فإن تصورهم - بعد أن كان صحيحا - اختلط ، ولم يعد يمثل الحق ، أما لماذا دعاه القرآن إلى سؤال أهل الكتاب؟ فالجواب : لإقامة الحجّة عليهم ، وذلك - كما يقول ابن المنير الإسكندري - «إن نفي الشكّ عنه - عليه الصلاة والسلام - توطئة لأمره

بالسؤال : لتقوم الحجّة على المسؤولين ، لا ليستفيد بسؤلهم علما ، لمزيد تعيّن الإبراء بقوله له : ﴿قل لمن مافي السّموات والأرض قل لله﴾ فأمر بالسؤال والجواب جميعاً[٢٥] .

وهذا يوضّح أن قراءتهم لم تتجاوز القشور إلى اللباب ، ولم تنفذ من السطح إلى الأعماق ، بل تحوّلت إلى رسوم لا معنى لها ، وأمر النبي ﷺ بسؤالهم فيه تبكيت لهم ، وهزّة عنيفة لنفوسهم ، بل ضربة شديدة على رؤوسهم ، ليتنبهوا إلى خطئهم العظيم في تلقّي كتاب الله . إن القراءة تقيم الحجّة ، وتوجب الأمانة ، وتحمّل المسؤولية ، ومن شأنها أن تدعوا إلى الإئتلاف ، لا الاختلاف ، وتنفي الشكّ وتورث اليقين ، لكن هؤلاء لم يحصّلوا شيئا من هذه المعاني . لقد بيّنت الآية وضوح المقصد ، وجلاء التصوّر ، في محاجّتها ومحاكمتها منحرفي الاعتقاد من أهل الكتاب إلى الكتاب نفسه ، فتطالب بإعادة النظر في منهج القراءة وأسلوبها ، حتى تؤتي ثمارها .

كذلك ردّ القرآن على المشركين الذين سقطت عقولهم في عيونهم ، وغلبت عليهم المادية ، فطلبوا آية محسوسة تبصرها أعينهم ، بدل أن تفقهها قلوبهم ، وتدركها عقولهم : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ (الإسراء :٩٣) .

إنه حين تتحول القراءة من كونها وسيلة وعي وتذكّر ، وسبيل علم وتأمّل ، إلى مجرد تلفظ بحروفه دون وعي لمعانيه ، وإدراك لأحكامه ، بل وإهمال لحدود ما أنزل الله فيه ، حينذاك يكون هذا الكتاب حجّة على حامليه ، وسبيل لعنة على المتخاذلين في إقامة حدوده والعمل بما فيه .

(٢٥) أبوالعباس أحمد بن محمد المعروف بأبن المنير الإسكندري ، الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (مطبوع بهامش تفسير الكشاف للزمخشري) دار الكتاب العربي ، بيروت . ج٢ ، ص٣٧٠ .

إن هاتين الآيتين تقرّران خطأ منهج أهل الكتاب والمشركين في قراءة كتاب الوحي ، فأهل الكتاب حوّلوا قراءته إلى صور لا معنى لها ولا حقيقة . والمشركون ظنّوا أن القراءة تكون على هذه الهيئة . وهذه حماقة من الفريقين .

ب - انصراف الهمّ عنه بإهمال العمل به ، وإثارة الشكوك حوله : أنكرت آيات كثيرة على أهل الكتاب والمشركين سوء صنيعهم بانصرافهم عن آيات الله التي تُتلى عليهم ، فلايؤمنون بها ولا يتّبعون هديها ، ولم يكتف المشركون بهذا ، بل عملوا على إثارة الشبهات حولها(*) .

واستنكر القرآن ماهم عليه من كفر مع وجود كتاب الله وآياته تتلى عليهم ، فقال في حقّ أهل الكتاب : ﴿ **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (١٠١) ﴾ (آل عمران : ١٠١) . ويتحدث القرآن عن القيمة الوظيفية لتلاوة آيات الله المبثوثة في الآفاق ، وهي : أن هذه التّلاوة إن استوفت معانيها وشروطها فإنها مؤدية ـ حتما ـ إلى الإيمان والتسليم بوحدانية خالق هذه الوجود ، فإنّ الله تعالى مانصب هذه الآيات إلا لتهتدي إليها العقول ، وذلك بتلاوتها تلاوة تعقّل وتفهّم ، بحيث يكون الكفر مع تلاوة هذه الآيات مستنكرا ، بل مستحيل . والاستحالة واردة من جهتين : من جهة أن آيات الله تتلى عليهم بكل وضوح ، ومن جهة أن فيهم رسوله الذي يعرّفهم بهذه الآيات ، فالأمران يؤدّيان إلى الإيمان الحقّ .

وقال في حقّ الكافرين الذين عمدوا إلى التشويش عليه : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (٥١) ﴾(العنكبوت : ٥١) . وقال : ﴿ **تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ**

(*) انظر : الآيات في السور الآتية : آل عمران : ١٠١ . الأنفال : ٣١ . يونس : ١٥ ، مريم : ٧٣ . الحج : ٧٢ . المؤمنون : ٦٦ ، ١٠٥ . العنكبوت : ٥١ . لقمان : ٧ . سبأ : ٤٣ . الزمر : ٧١ . الجاثية : ٦ ، ٢٥ ، ٣١ .

﴿ ... حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الجاثية :٦) .

ولقد أنكر القرآن موقفهم السلبيّ في تلقّي هذه السنن والهدايات التي لم تكن قد تليت عليهم من قبل ، إن شأن الرسالة أن تفرض هذه التلاوة ، فمحمد ﷺ لم يكن يتلو عليهم هذه السنن إلا بعد أن أعلمه الله بها : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (القصص :٤٥) . إن الرسالة التي هي التلقّي عن الله ـ تعالى ـ تتطلب إعمال العقل في فهم حقائق التلاوة .

لقد بيّن لهم سنن الله في الكون وفي الآفاق ، وطرقت أسماعهم ، لكنهم استقبلوها بعدم وعي ، ولا فقه ، ولا فهم ، وأخذوا يتعلّلون بشبه ظنوها قاضية على هدي الكتاب ، يقول تعالي : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يونس :١٥-١٦) وشأن الرسالة أن تفرض على الرسول أن يتلو ويعلّم ويقرأ لهم قراءة إلزام وإحكام ، وقراءة اتّباع وامتثال ، وشأنهم هم اتّباع هذه القراءة ظاهرا وباطنا . لقد ربط السياق هنا بين تلاوة الآيات عليهم ، وبين طلبهم بإتيان قرآن آخر ، أو تبديل هذا القرآن الموجود ، وذلك أن القرآن لما جاء بالأسس الصالحة لبناء الحياة وتنظيمها بما بيّنه الله ـ تعالى ـ من هدايات وسنن ، اعترض هؤلاء على تدخّل القرآن في شؤون الحياة ، فطلبوا شيئا ينسجم مع ماهم عليه من أوضاع وقيم ومبادئ ، ليذهبوا هم بالغُنْم ، وتسحق الأكثرية وترجع بالغُرْم .

إن المجادلة بالباطل والمطالبة بمصدر آخر يكون فيه هذا البيان : هو من الانحراف في التعامل مع القرآن مفسّر هذا الوجود . هذا الاعتراض على مصدر

العلم والمعرفة يقوم أساسا على أمرين غير منهجيين دفعا إلى اتّخاذ هذا الموقف ، هما :

الأول : الافتراء والكذب الذي يعيش عليهما هذا الصنف من الناس ، وهذا من شأنه أن يولّد عداء ظاهرا للحق .

والثاني : عدم وضوح الهدف أو السّبب المنطقي الذي من أجله رفضوا هذا الحق ، وعلى كل الأحوال يظهر أن الهدف هو مجرد عداء للحق وعناد .

ويبيّن القرآن أن سبب انصرافهم عن اتّباع هدايات الكتاب السماوي وحقائقه لايرجع إلى طبيعة الكتاب نفسه ، ولكنه يرجع إلى عيب في عقولهم ، ومرض في قلوبهم ، نتج عنهما سوء أدب في تلقّي كتاب الله ، وقد وُصفوا بأصدق وصف ، وهو : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف :١٧٩) . ولقد نبّه القرآن إلى أنهم إن لم يؤمنوا بآيات الكتاب المسطور فليؤمنوا بآيات الكتاب المنظور : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (سورة الحج :٤٦) .

لقد اتسم موقفهم منه بالازدواجية ، فضلا عن إهمالهم العمل به ، فعلى صعيد الالتزام بآياته التشريعية ، فقد أنكر على أهل الكتاب نفاقهم في موقفهم الذي استنكفوا فيه عن عمل البرّ والخير ، واتّباع ماجاء به من أحكام ، واكتفوا بأمر غيرهم به ، وهو موقف جدير بالنقد والتأنيب والإنكار : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة :٤٤) ، ولقد قصّروا فيماكلّفوا به ، وأصبح الكتاب عندهم لامدخل له إلى القلب ، ولا أثر له

في السلوك. وكان بذلك حجّة ولعنة عليهم. ولهذا حذّر سلف هذه الأمّة من الوقوع في هذا المنزلق الخطير، فقالوا: «إن هذا القرآن كائن لكم ذخرا، وكائن عليكم وزرا، فاتّبعوا القرآن، ولا يتبعكم، فإنه من اتّبع القرآن هبط به على رياض الجنّة، ومن تبعه القرآن زجّ في قفاه، فقذفه في نار جهنّم»(٢٦).

إن تلاوة الكتاب تقتضي اتّباعه حق الاتّباع: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (البقرة: ١٢١).

وقد أُمرَ الرسول باتّباع الكتاب المنزل، وما جاء به من سنن، وماشرعه من حكم، مخالفا لأهل الكتاب، ومبتعدا عن سلوكهم في إهمال العمل به، بقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (النمل: ٩٢) أي: أواظب على تلاوته وتلوّه، أي: اتّباعه، عبادة لربّي، وإبلاغا للناس ماأرسلت به إليهم، مما لا يلم به ريب في أنه من عنده، ولأكون مستحضرا لأوامره، فأعمل بها، ولنواهيه فأجتنبها، وليرجع الناس إليه، ويعوّلوا في كل أمر عليه، لأنه جامع لكل علم(٢٧).

هذا أساس منهجي في منهج التعامل مع كتاب الله تعالى، فإذا لم تكن التلاوة مقوّمة للسلوك، ومفعّلة لحركة الإنسان، فإنها تفقد معناها وجدواها. وهذا مستوى من الالتزام بالمنهج يجب على الكبير، ويدرّب عليه الصغير.

ج ـ الاختلاف فيه: يبيّن القرآن مزيدا من أخطاء أهل الكتاب في التعامل مع الكتاب السماوي، حيث ابتعدوا بتلاوته عن المعيار الصحيح في الحكم على

---

(٢٦) أبوبكر محمد بن الحسين الآجرّي، أخلاق حملة القرآن، محمد بن الحسين أبوبكر الآجرّي، تحقيق محمود النقراشي، (١٩٨٧) مكتبة النهضة، السعودية. ص: ١١٦. وهو كلام لأبي موسى الأشعري.

(٢٧) البقاعي، نظم الدرر، ج٥، ص٤٥٨.

الأشيـاء ، فلم تزدهم التـلاوة إلا جـهلا واخـتـلافا وتـفـرّقـا ، ومن البـدهي أن الاحـتـكام إلى غـيـر الوحـي الإلهي سيـخـلّ بكل المعـايـيـر التي تـضـبط المبـاديء والقيم التي يخضع لها الناس في حياتهم ومعتقداتهم ، بل وطريقة تفكيرهم . ويوحي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ (البـقـرة :١١٣) : أن عـدم إحكامهم منهج تلاوته أدّى ببعـضهم أن يطعن في بعض ، بـل ويكفر بعـضهم بعضـا ، فقد شـهد اليهـود على النصارى بالتنصل من تبعات الكتاب ، وشـهد النصـارى على اليـهـود بالأمـر نفسـه ، وهم يتلـون الكتـاب . وشـأن التـلاوة الصحيحة أن تقضي على ظاهرة الاخلاف الديني ، إذ كيف تؤول أمة إلى مثل هذا الفـهم وفيهـا كـتاب الله ينطق بالحق ! إن الفوضى الفكرية ستبلغ حـداً لا ضابط له إن هي لم تحتكم إلى وحي الله تعالى .

أقـول : كـذلك شأن المدارس الفكرية التي نشـأت في البيئة الإسـلاميـة ، فكل مدرسة اقتربت من هدي الوحي كانت صـحيحة المسـار ، مستقيمـة الاتجـاه . وكلما ابتعدت عـن هـدي الوحـي وتعلقت بأهداب الفلسفة أو الهوى ضلّت الطريق ، فشـأن تـلاوة الكتـاب - إذن - أن تعـصـم الفكر مـن الاتجـاه بعيـدا عن هداية الوحي .

المبحث الخامس

وظائف تلاوة القرآن ومهمّاتها

١ - **التلاوة مهمّة نبوية** : نفى القرآن أن يكون الرسول قد تلا كتابا من قبل ، وبهذا النفي يظهر شأن التلاوة وأثرها ، فأن يتلو بعد عدم أبلغ في نفي الريب عنه ، وأدعى إلى الاستماع لتلاوته ، ولم يكن ﷺ قد تأهل لهذه المهمّة إلا ليكون معلّما هادياً بإذن ربّه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت :٤٨) .

وهذا وحده كاف ليعقل كل ذي لبّ أن هذا الكتاب الذي يُتلى عليهم كلام ذو خصائص لم تعهدها الأرض من قبل ، هذه الخصائص تقود الإنسان وتهديه إلى سموّ الكمال النفسي والروحي بمجرد تلاوته بقلب واع . إنه كتاب يحمل تصديقه بين يديه .

وقد جرت سنّة الله في تعليم الأمم هدى الله ـ تعالى ـ أن يرسل إليها رسولا ، لئلا يكون الهدي الإلهي في طور المثال ، فالرسول يمثل حقيقة واقعية الهدي الإلهي ، والتّلاوة وظيفة من وظائف النبوة ومهمّاتها ، كما قال : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الرعد :٣٠) .

ولجهل الناس بكيفية التلاوة أكّد القرآن الكريم في آيات كثيرة مهمّة النبي ﷺ في تعليم هذه التلاوة(*) ، ولقد سبقت هذه الوظيفة - لأهميتها - تزكية النفوس وتعليم الكتاب والحكمة : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا

(*) وانظر : البقرة :١٢٩ ، ١٥١ ، الجمعة :٢ ، الطلاق :١١ .

مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (آل عمران :١٦٤) . ومعنى تلاوة الرسول الآيات عليهم ، أي : يقرأ قراءة يتبع بعضها بعضا على وجه الكثرة والعلو والرفعة[٢٨] . هذا إن كان المقصود بالآيات آيات القرآن ، والأولى أن تكون دلائل وحدانيته كما فسرها الزمخشري[٢٩] . أو سننه ـ تعالى ـ في الحياة والكون والإنسان ، وبذلك يرسخ النبي ﷺ في أذهان الخلق معرفة هذه السنن ، والعمل بمقتضاها .

وقد أبعد البقاعي النجعة حين جعل تلاوة الآيات عليهم عوضا من تناشدهم الأشعار[٣٠] .

وفي هذا المعنى يرى بعض العلماء أن في تلاوة الكتاب عليهم أخذهم بما هو في طباعهم : من إيثار أمر السمع على أمر العين الذي جبلت عليه العرب ، بخلاف سائر الأمم ، فهي أمّة تؤثر مسموع المدح والثناء من الخلق على ماتناله من الراحة ، فتجهد في طلب الثناء من الخلق مالم تجهد أمّة غيرها ، فكيف إذا كان مادعيت إليه ثناء الحقّ عليها ، وتخليد ذلك لها من كلام هو كلام ربّها ! فتنال بذلك ماهو فوق مقصودها ، مما جبلت عليه من إيثار السّماع على العين ، وفي هذا إغناء العرب عن إعمال أفكارها في تكسب العلم والحكمة لتستخرج منه أحكاما ، فكان في تلاوة الآيات عليهم : إغناؤهم من الاستدلال بالدلائل ، وأخذ الأمور بالشواهد ، وتولّي الله ورسوله تعليمهم ، ليكون شرف المتعلم بحسب علاء من علّمه ، ففضل علماء العرب على سائر العلماء كفضل النبي على معلميهم ممن سواه ﷺ[٣١] .

---

(٢٨) البقاعي ، نظم الدرر ، ج٧ ، ص٥٩٢ .

(٢٩) جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التأويل (بلاتاريخ) دار الكتاب العربي ، بيروت . ج١ ، ص١٨٩ . ويفسّر الزمخشري «آيات الله» أحيانا بـ«القصص» ، ج١ ، ص٢٩٦ . وأحيانا بـ«القرآن» ، ج١ ، ص٣٩٣ .

(٣٠) البقاعي ، نظم الدرر ، ج١ ، ص٢٧٤-٢٧٥ .

(٣١) المرجع السابق نفسه ، ج١ ، ص٢٧٥ .

وهو كلام غير مسلّم بعمومه ، فلو كان العرب ـ عامّة ـ كذلك ، لأسرعوا إلى الإيمان بالله تعالى ، واكتفوا بالقرآن طريقا إلى الإيمان ، وكيف نفسّر مطالبتهم النبي بمعجزات حسّية ! هذه الصفة تصدق على بعض الجوانب في حياتهم . أما حين يتعلق الأمر بالاعتقاد فهم كغيرهم يبحثون عن الدليل والبرهان ، ولا ضير في هذا . وإذا كان ذلك متعلقا فيما تفرّد به الوحي من بيان حقائق الغيب فهذا حقّ ، ولكنه ليس خاصّا بالعرب وحدهم ، بل أغنى الله ـ تعالى ـ البشر كلهم عن إعمال أفكارهم في هذا الجانب الذي لا شأن للعقل فيه إلا الفهم والوعي والتسليم . ومع هذا فإن فضل القرآن والنبي على العرب لا يعظمه فضل . وإعمال الفكر والعقل في تفهّم هذا الخطاب الإلهي ضرورة علمية ، وفريضة شرعية .

وكيف يصح - بعد هذا - أن يكون في تولّى الله ـ تعالى ـ تعليمهم إغناء لهم عن إعمال أفكارهم؟ أيريدهم الله أمّة بليدة؟

٢ - **التّلاوة حجّة إلهية** : جرت سنّة الله ـ تعالى ـ بأن لا يعذّب قوما ولا أمّة إلا بعد أن يرسل إليهم رسولا يتلو عليهم سنن الله في الكون والحياة والإنسان . ويفصّل لهم دلائل وحدانيته تعالى ، ومظاهر تفردّه بالملك ، وجعل الإهلاك مرهونا بالاستنكاف عما جاءت الرسل تتلوه وتعلّمه من هذه الآيات والسنن : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ (القصص :٥٩) . وهي مصدر علم ، لا يعذر أحد بعدها بالجهل ، وبهذا يقيم القرآن بالتّلاوة الحجّة القاطعة على الخلق .

٣ - **التّلاوة سبيل تربية روحية** : يؤكد القرآن ضرورة التسليم الوجداني الناتج عن تلاوة الآيات ، كأن القضية لا يكفي فيها الاستجابة العقلية المجردّة ، دون أن

يشفع ذلك تسليم وجداني يمتلئ به القلب ، ولتبلغ التّلاوة بهما آفاقها القصوى حين تحوّل ذلك إلى برامج عمل ، لقد أثنى القرآن على تلاوة المؤمنين التي تؤدّي بهم إلى غاية الخضوع والاستسلام لله ربّ العالمين : ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾ (الإسراء :١٠٧-١٠٩) ، فقوله تعالى : ﴿ يقولون ﴾ إعلان صارخ عن الهويّة التي أصبحوا يحملونها لتعمير الكون والحياة بهدي هذا المنهج الرباني . إنه إعلان عن توجيه القصد في العلم والعمل إلى الله ـ سبحانه ـ ، وهو إعلان متجدّد مستمر ، لا ينقطع ولا يتوقف .

ويتأكد هذا الأثر لهذه التّلاوة المثمرة لآيات الله في سلوك أعظم الخلق من رسل الله ـ تعالى ـ وأنبيائه ، وممن هداهم واجتباهم من عباده الصالحين ، فبعد ذكر زكريا ، ومريم ، وآل يعقوب ، ويحيى ، وعيسى ابن مريم ، وإبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، وموسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وإدريس ، قال سبحانه : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾ (مريم :٥٨) . وبهذا يتقرر فضل التلاوة التي تقود إلى هذه الاستجابة التي تتربّى فيها الروح ، وتتهذّب فيها النفس ، وهي المعيار الحاكم على كل تلاوة .

وتأكّد هذا التأثير الروحي للتّلاوة التي تجاوزت الترديد اللفظي باللسان ، لتصل إلى أحناء الصدر وأعماق القلب فيخرّ ساجدا لله : ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) ﴾ (الإسراء :١٠٧-١٠٨) .

لقد أثنى القرآن على فئة من أهل الكتاب أحسنت تلقّي كتاب ربّها : ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (سورة آل عمران :١١٣) . وتخصيص آناء الليل ظرفا لتلاوتها ، لما فيه من غياب كامل عن كل الملهيات والمشغلات ، وفيه تعود النفس إلى كيانها ، وتثوب إلى رشدها ، بعيدا عن كل المؤثرات ، فتحاكم نفسها إلى الحقّ ، وترشدها إلى الصدق . والسياق جاء يقابل بين هؤلاء الذين آمنوا بآيات الله ، وأولئك الذين كفروا بآياته من أهل الكتاب ، فالمؤمنون ـ منهم ـ قد وعوها فانقادوا إلى هديها ، أما أولئك فلم يعقلوها ، فانقلبوا على أعقابهم صاغرين في أسر الهوى والكبر والعناد .

٤ – **التّلاوة هداية تشريعية** : إن من معاني التّلاوة حين تتصل بالكتاب السّماوي : الحثّ على اتباع التشريع الإلهي في شؤون كثيرة ، منها : شؤون النساء ، ويتامى النساء :﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ (النساء :١٢٧) ، وهذا يدلّ على استعمال التّلاوة فيما هو تشريع للاتّباع ، فهو هدي جدير بأن يتلى ، ويحفظ ، ويتّبع .

وهذا يوضّح أن الوحي كذلك كتاب يقضي في مشكلات الإنسان وشؤونه الصغرى ، كما قضى في شؤونه ومشكلاته الكبرى ، واتّباعه في ذلك حقّ واجب إذا ما أريد لحياة الناس الصلاح .

٥ – **التّلاوة من أركان العمل الصالح** : قدّم القرآن تلاوة كتاب الوحي على إقام الصلاة : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت :٤٥) . وهذا يعطي للتّلاوة أهمية بالغة

بوصفها طريق معرفة وفهم لدستور العمل . وجاءت عقب آيات تتحدث عن خلق السموات والأرض ، وبيان هدي القرآن في التعامل مع أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسن ، وهذا يبيّن أن اللجوء إلي القرآن بوصفه المرجع الأصيل في توجيه وترشيد أي حوار ضرورة منهجية .

إن الصّلاة مشعل لروح الإنسان ، كما أن القرآن هو مشعل لنور العقل ، والتوفيق حليف من تمكّن هذان النوران في قلبه : نور العقل ، ونور الروح . وهما سرّ نجاح العبد في أداء مهمّة الدعوة إلى الإسلام . وهذا هو ماتعاني منه الدعوة اليوم ، نقص في كفاءات الدّعاة ، فإن توفّرت الروح الفياضة لدى الداعية تجد نقصا في كفاءته العلمية ، وإن بحثت عن الكفاءة العلمية وجدتها مشوبة بتفريط في الجانب الإيماني العاطفي الفيّاض .

وترشد التّلاوة ـ كذلك ـ إلى فهم طبيعة هذا الخلق ، وتكرار الأمر بالتلاوة والحثّ عليه بإلحاح شديد ، لتتأكد مفهومات هذا الوحي في نفس الإنسان وتتقرر .

ويقرن القرآن بين تلاوة كتاب الله وإقام الصلاة والإنفاق في سبيل الله ، وهو اقتران بالأركان العظمى من الأعمال الصالحة ، كيف لا ، وهو أساسها وأصلها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (فاطر :٢٩) .

٦ - **التلاوة طريق معرفة السنن الإلهية** : تأتي آية التلاوة في سورة الكهف في سياق الحديث عن أصحاب الكهف . وتلاوة الكتاب هناك معناها : اتّباع هدي سننه ، وتأتي الكلمات معبرة عن أوامر إلهية عظمى ، لا مبدّل لها ، فحفظ الحقّ وأهله والانتصار له : أمر إلهي ، تمثل بأوضح صورة في قصة

أصحاب الكهف ، واتّباع الوحي بوصفه المصدر الذي لا يأتيه الباطل ضرورة يعترف بها العقل : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الكهف :٢٧) .

٧ – **التّلاوة مسؤولية كبرى** : إن كل ما كلّف به المسلم مسؤول عنه أمام الله ـ تعالى ـ ، والتنويه بكمال علم الله ـ تعالى ـ في سياق الحديث عن التلاوة يفرض رقابة على قيام العبد بهذا التكليف ، فاللّه ـ تعالى ـ رقيب على مايفعل الإنسان بمقتضى علمه الواسع الذي لا يغيب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء . ولكن الملفت للنظر ـ هنا ـ أن القرآن خصّ عمل التلاوة بهذه الرقابة ، فاللّه تعالى رقيب على تلاوة العبد كلام ربّه ، فالتّلاوة ـ إذن ـ مسؤولية ، وواجب كلّف الإنسان به .

وتوضيح ذلك : أن القرآن جعل عمل الإنسان في ثلاثة أقسام ، كما يتبيّن من قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (يونس :٦١) . وأن الإنسان ينبغي أن يكون متنقلا بين هذه الثلاثة في كل أحواله ، وهي : وماتكون في شأن . وماتتلو منه من قرآن . ولا تعملون من عمل . فكأن الآية ـ هنا ـ تفتح آفاقا معرفية لحركة الإنسان في الحياة ، فالشأن في تعبير القرآن يُراد به الأمر العظيم الذي يأخذ على الإنسان لبه ، ويهيمن على مشاعره وأحاسيسه ووجدانه ، ويملأ قلبه شغلا .

ثم التلاوة القسيم الآخر للشأن ، ثم العمل ، رقابة على الأمانة التي استودعها الإنسان . وما دام أن السنّة الإلهية تحققت ببعثة النبي ﷺ لتلاوة الوحي ، فيتقرر هدف التلاوة في إخراج الناس من حال الجهل إلى حال العلم .

خلاصة البحث وخاتمته

ونخلص من هذه الدراسة : إلى أن القراءة والتّلاوة مصدران يمتدان بآفاقهما لوضع الإطار العام الذي يضبط منهج التعامل مع القرآن ، عن طريق بيان الأسس المعيارية للقراءة ، من حيث خصائصها وشروطها المنهجية ، والوظائف والمهمّات الأساس للتّلاوة . وبيان الأخطاء القاتلة في واقع تلقّي الكتاب السماوي التي تمثل انحرافات أهل الكتاب ، وتعامي العلمانيين الماديين عن الاستجابة لمقتضيات التعامل معه قراءة وتلاوة .

إن مفهوم كل من القراءة والتلاوه وما يترتب عليهما من : استعاذة ، واستماع وإنصات : كل أولئك ليس حركات آلية ، ولا هي أصوات متناغمة تجرى بها الألسنة ، ولكنها عمليات منهجية ، يشترك الإنسان كله : عقلا ، وقلبا ، ولسانا ، وروحا في إدراكها ، والوقوف على حقائقها ، والعمل بما يستوجبانه ، وتلك المستلزمات والمتطلبات تعدّ ضرورات ، لا تصحّ القراءة أو التلاوة إلا بها .

ولقد تبيّن أن القراءة في القرآن لا تكون إلا لثلاثة كتب : كتاب الكون ، وكتاب الوحى ، وكتاب العمل ، وكأن القرآن ينصّ على ضرورة قراء كتاب الكون بمفتاح كتاب الوحي ، ويقول : ارتقب ثمرة جهدك ، وجزاء تعبك في كتاب العمل .

وتبيّن أن القراءة الفاعلة للقرآن الكريم التي تعني حسن تفهّم الاعتقاد الحقّ ، والتصور الصحيح ، هي التي تسوق إلى الهداية ، وتحقّق في نفس العبد الخشية والسموّ الروحي والاطمئنان النفسي .

وكون آياتها جميعا واردة في العهد المكي يبيّن ويحدّد مهمّات عظيمة

للقرآن في هذا العهد ، أنجزها في فترة وجيزة ، وبذل المسلمون النفس والنفيس من أجلها ، وهاجروا في سبيلها إلى قرية آمنة ، لتأخذ في الانتشار الأفقي في قلوب البشر ، لذا أُمر الرسول ﷺ ، وأُمر المؤمنون بقراءة القرآن لتمتلئ نفوسهم ، وليقوى يقينهم بتلك الحقائق الكبرى . ومن البدهي أن معرفة التصور الحق هي التي تجعل هذه الأمّة الوسط تتأهل لتكون خير أمّة أخرجت للناس . إن القراءة توجب تفاعل العقل المولّد للفكر في مختلف الميادين على أسس هدايات الوحي .

أما آيات التلاوة فقد تجاوزت في مفهومها الاتّباع الفقهي - وهو الالتزام بما جاء به من أحكام - وتفوقت عليه ، وصولا إلى هدايات وسنن تحكم شؤون الحياة ونظامها ، وتقوّم مسارات العلوم والمعارف واتّجاهاتها .

وتأخذ تلاوة آيات الله ـ التي هي معالم الحقّ ، وبراهين المعرفة ، ودلائل الوحدانية ، وعلامات اليقين ، وسنن الحياة - حيّزا مهمّا من نصوص القرآن .

هذا ، وفي بيان القرآن الكريم : أن الأمم السابقة لم تتفاعل مع كتاب ربّها ، بل تلكأت في تلقّيه ، وتباطأت في تنفيذ أحكامه - في ذلك إعذار لهذه الأمّة وإنذار ، لئلا تقع فيما وقعت فيه تلك الأمم : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (سورة آل عمران :١٠٨) .

لقد امتدت آيات التلاوة إلى آفاق واسعة جداً ، سواء من حيث معانيها ، أو من حيث وظائفها ومهمّاتها ، أو من حيث غاياتها وأهدافها ، وقد وردت في القرآن أضعاف ورود القراءة ، وذلك - والله أعلم - لأنها تمثل الترجمان العملي للقراءة ، فآياتها ومعاركها مع أهل الكتاب والمشركين هدفت إلى تصحيح منهج العمل في ضوء التّلاوة الصحيحة لكتاب الله ـ سبحانه ـ ، إن التّلاوة توجب

تفاعل السلوك المولّد للالتزام الظاهر والباطن .

ومجيء النصوص الكثيرة في القرآن والسنّة تدعو إلى وجوب قراءة القرآن وتلاوته بهدف الحفاظ على معاني العقيدة وأسس التصورّ الشامل عن الكون والحياة والإنسان قائمة : اعتقاداً ومسلكاً ، وهذا هو السبيل الذي يجعل معاني القرآن وحقائقه حياة في النفوس ، والله ـ تعالى ـ أعلم .

دليل المصادر والمراجع

١ - ابن الأثير ، مجد الدين المبارك بن محمد ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق محمد الطناحي (١٩٧٩) ، دار الفكر ، بيروت .

٢ - الآجرّي ، أبوبكر محمد بن الحسين ، أخلاق حملة القرآن ، تحقيق محمود النقراشي (١٩٨٧) ، مكتبة النهضة ، السعودية .

٣ - الإسكندراني ، أحمد بن المنيّر ، الانتصاف ، حاشية الكشاف للزمخشري (بلاتاريخ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٤ - الأصفهاني ، الحسين بن أحمد المشهور بالراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق صفوان داوودي (١٩٩٢) ، دار القلم ، دمشق .

٥ - البقاعي ، برهان الدين إبراهيم بن عمر ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٩٩٥) ، دار الكتب العملية ، بيروت .

٦ - الدمغاني ، الحسين محمد ، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن ، تحقيق عبدالعزيز الأهل (١٩٨٥) ، دار العلم للملايين ، بيروت .

٧ - الدّغامين ، زياد ، نظرية الإمام الغزالي في التعامل مع القرآن (١٩٩٦) مجلّة المسلم المعاصر ، العدد (٨٠) .

٨ - الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر ، الكشّاف عن حقائق التنزيل (بلاتاريخ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٩ - شلتوت ، محمود ، تفسير القرآن الكريم (١٩٨٣) ، دار الشرق ، بيروت .

١٠ - الطريحي ، فخرالدين ، تفسير غريب القرآن (مجهول تاريخ ودار النشر) .

١١ - ابن عاشور ، محمد الطاهر ، تفسير التحرير والتنوير (١٩٨٤) ، الدار

التونسية للنشر ، تونس .

١٢ - عبده ، محمد ، تفسير جزء عمّ (١٩٨٥) ، مكتبة الهلال ، بيروت .

١٣ - الغزالي ، أبوحامد ، إحياء علوم الدين (بلاتاريخ) دار المعرفة ، بيروت .

١٤ - ابن فارس ، أحمد بن الحسين ، مجمل اللغة (١٩٨٦) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٥ - ابن فارس ، أحمد بن الحسين ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبدالسلام هارون (١٩٨١) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

١٦ - الفيروز أباي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق محمد النجار (بلاتاريخ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٧ - الماوردي ، أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب ، النكت والعيون (بلاتاريخ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

AL-Quran: Between the Horizons of Reading and Recitation

Dr. Ziad Khaleel Muhammea Al-Daghameen

This study has revealed that "AL-Qiraa'a" (reading) and "AL-tilaawah" (recitation) are two verbal nouns with extending horizons which set the general frame that adjusts the approach of dealing with Al-Quran through clarifying the standard bases of reading concerning its characteristics and methodical conditions as well as the basic functions of recitation. It has also revealed the fatal errors and distortions which Ahl Al-Kitaab (People of the Book) have committed in dealing with their Heavenly Books, as well as the negligence of the materialistic secularists in their response to the requirements of reading and reciting Al-Quran.

The two concepts of reading and recitation and their requirements, such as "isti aadhah" (seeking Allah's protection from Satan) and listening with attention, are not mechanical movements or just harmonious sounds articulated; rather they are methodological processes in which the whole Muslim human being is involved-his mind, heart, tongue and spirit-so as to understand and realize the facts and put them into application. These prerequisites are necessary conditions for reading and recitation to be correct.

It has become evident that the term "reading" in Al-Quran is applied only to three books: The book of the universe, the revealed book and the book of deeds. It seems as if AL-Quran's injunction is to read the book of the universe by the help of the revealed book so as to be entitled to book for the fruits and reward of your hard work in the book of deeds.

It has been also clear that the effective reading of the Glorious Quran.i.e. good understanding of the true faith and the correct conception, is the one that leads to attaining guidance and to provide the servant with Allah-fearing, spiritual sublimity and psychological tranquility.

All verses on reading were revealed in Mecca. This indicates and defines the great missions and achievements accomplished by Al-Quran in a short period in this era. Muslims sacrificed every thing to defend them and for their sake they immigrated to a place more secure so as to be propagated in wider circles of hearts. The messenger of Allah (PBUH) and the believers were commanded to read Al-Quran in order to have their hearts filled and their

certanity reinforced with these great facts. It is axiomatic that knowing theses facts is the source of making this justly balanced Ummah (Ummatan wasatan) qualified to be the best ummah evolved for mankind. Reading AL-Quran enjoins the reaction of mind that generates thoughts in all fields on the bases of the guidance of revelation.

As for the verses of recitation, they have gone in their conception beyond the level of juristic sticking to the instructions of Al-Quran, to reach higher levels of guidance and general laws which govern life affairs and systems and direct the approaches and tendencies of disciplines and knowledge.

There is an important space in the text of Al-Quran dedicated to Allah's signs that represent the signposts of truth, evidences of knowledge and oneness, indicators of certainty and general laws of life.

Al-Quran has indicated that the previous communities did not react positively to their Lord's Scripture, rather they lagged in receiving it and did not head to implement its instructions. This indication is a sort of excuse for this Ummah and also warning, lest they should commit the same faults: "These are the signs of Allah: We rehearse them to thee in truth: And Allah means no injustice to any of His creatures." (3:108)

The verses of recitation have reached very wide horizon, whether in their meaning, functions and missions or goals and objectives. In number, they exceed many times the number of the verses of reading, perhaps - and Allah knows best - because they represent the practical implementation of reading. These verses and their clashes with the People of the Book and the polytheists have aimed at correcting the approach of work in the light of the correct recitation of the Book of Allah (SWT). Indeed, recitation enjoins behavioral reaction that generates external and internal commitment.

The abundance of Quranic verses that command reading and reciting Al-Quran have the aim of preserving the components of the faith and the foundations of the comprehensive conception about the universe, life and mankind in both levels of belief and behavior. That is the only way for keeping the meanings of Al-Quran and its facts alive in hearts. Allah knows best.